محاضرات في تاريخ الجزائر الثقافي تخصص أدب جزائري السنة أولى ماستر الأستاذ خبراج سنوسي

عنوان المحاضرة الأولى : الحياة الثقافية في العهد الرستمي

عرفت مدينة تيهرت في العهد الرستمي نهضة فكرية وعلمية واسعة وازدهرت الحضارة ، وقد توثقت الصلة بين الرستميين وبين بلدان المشرق العربي والاندلس من جهة، وفاس من جهة أخرى، ويرجع ازدهار الحياة الثقافية إلى تشجيع الأمراء الرستميين الناس على طلب العلم فأدى هذا إلى ظهور مراكز علمية مهمة تابعة لمدينة تيهرت مثل شرس وجبل نفوسة وجزيرة جربة وورجلان وغيرها من المناطق التي كانت تابعة للحكم الرستمي، كما شيد الأمراء المساجد ودور العلم وجلبوا الكتب من المشرق فكان لاهتمامهم أثر كبير في تفعيل المجال العلمي في مختلف المجالات، وقد توفرت عدة أسباب لتزدهر هذه الحياة الثقافية والفكرية منها منها:

-المكانة العلمية التي يتمتع بها الأمراء الرستميين فقد كرسوا حياتهم لخدمة العلم باشرافهم على التدريس في الجوامع مثل جامع تاهرت وجامع نفوسة ، فقد كان عبد الرحمن ابن رستم من كبار العلماء في عصره فقد برع في علوم الدين واللغة والفلك وقد ألف كتابا في التفسير على قلة ماكان يجده من الوقت، كما ألف الأمير الإمام أفلح بن عبد الرحمان كتاب سماه " مسائل نفوسة الجبل " .والشأن كذلك مع الإمام أبو بكر بن عبد الوهاب الذي كان محبا للعلم ومشجعا للأدباء والعلماء، ويظهر من خلال هذه الأمثلة أن أمراء الدولة الرستمية قد كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع وذلك بتشجيعهم لطلاب العلم بل وصل بهم الأمر إلى التدريس بأنفسهم في جامع تيهرت وجبل نفوسة .

-دور المساجد في نشر العلوم :يعد المسجد من أقدم المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، فالتعليم كان مرتبطا به ارتباطا وثيقا ولا يزال إلى يومنا هذا ولعل الدور الذي يشغله جامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس في تخريج العلماء خير دليل على ذلك، وإن كان المسجد أول ما خصص للعبادة فهو إلى جانب ذلك مكانا لتعليم القرآن وفهم آياته وأحكامه.

وقد سعى الأئمة الرستميون منذ الوهلة الأولى إلى تشييد المساجد بدليل أن عبدالرحمن ابن رستم أول شيء بدأ به هو بناء السجد الجامع عندما شرع في بناء مدينة تأويه وتأوي الإباضية

فقد لعبت هذه المساجد دورا مهما في نشر العلم فكانت تضاهي المراكز الثقافية في المشرق والاندلس مما جعل الطلبة يحجون لها لتحصيل العلم ، «فكانت مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا إلا أن الفقهاء تناجت المسائل فيما بينهم وتناظرت، ومن أتى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه

ألطف مناظرة وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك ، فقد كان يشرف على مساجد تاهرت ونفوسة كبار علماء الإباضية المتخصصين في أصول الدين والشريعة والرياضيات والطب والكمياء، وهذا ما شجع المحسنون الوافدون من الدول المجاورة للدولة الرستمية في التنافس على بناء المساجد حتى صارت تنسب إليهم وتسمى بأسمائهم فيقال هذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين.

دور المكتبات في نشر العلم: فقد اهتم الأئمة الرستميون بانشاء المكتبات واقتناء الكتب من دول المشرق ونسخوها ، وقد اشتهرت تيهرت بمكتبة المعصومة التي كانت تحتوي ثلاث مئة ألف مجلد، ولكن العبيدون أحرقوها وأخذوا منها ما يهمهم من الكتب ككتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب، ويعتبر عمل الحرق ثاني عمل يطال الحياة الفكرية للإنسانية بعد العمل الذي قام به هولاكو عندما أحرق مكتبات عاصمة العباسيين.

وقد لعبت مكتبة المعصومة دورا مهما وجسدت جهود أئمة الدولة الرستمية وحققت مساعيهم في تحويل حاضرة دولتهم إلى مركز إشعاع فكري يضاهي، بل ينافس المراكز الثقافية الأخرى في العالم الإسلامي في زمانها.

دورة التجار: فقد كان لهم دور كبير في نشر العلم، حيث توافد على تيهرت التجار من صوب وحدب وأفرغوا فيها علومهم إلى جانب سلعهم وبضاعتهم ، وبهذا ساهموا في نقل مختلف العلوم والفنون إليها حتى سميت تيهرت عراق المغرب، نظرا الاشعاع الثقافي الذي عرفت بسبب النشأة الدينية وحرية المعتقد وقيام نظام الشورى الذي ساوى بين الأجناس المحلية والوافدة من الدول المجاورة.

حلقات العلم: فقد شجع الأئمة الرستميون حلقات العلم وجعلوا بجوار كل مسجد كبيرا أو صغيرا مدرسة للصغار وحلقات العلم للكبار في المسجد وفي كل مسجد مكان مخصص للنساء، وأمام كل مسجد بيت للضيوف وأكثرهم من الحجاج حيث يقوم رواد المسجد بما يجب لإعالتهم.

المدارس الرستمية:من العوامل التي ساهت في الحركة الثقافية في الدولة الرستمية نجد المدارس، ولعلى أبرز مدرسو اشتهيرت بتيهرت هي مدرسة عمر ابن يمكتن فقد قيل « أن أول من علم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتن بمنزل يقال له إفطمان»، ويذكر أن المدارس كانت موجودة تقريبا في كل القرى يتعلم فيها الطالب ماتيسر

من العلم، وإذا أراد المزيد والتخصص في أحد فنونه وجد مساجد تيهرت والمدن الكبرى في الدولة الرستمية، ذلك أن مساجدها كانت بمثابة مدارس ثانوية وجامعات للتخصص في فنون المعرفة.

محاضرات في تاريخ الجزائر الثقافي تخصص أدب جزائري السنة أولى ماستر الأستاذ خبراج سنوسي

عنوان المحاضرة الثانية: الحياة الثقافية في العهد الزياني (عوامل ازدهار الحركة الفكرية وأهم المدارس):

شهدت تلمسان تطورا فكريا وثقافيا في مختلف العلوم الدينية والانسانية والفلك والطب،وهذا بشهادة ممن زارها من العلماء والرحالة، فهذا الرحالة القلصادي الأندلسي يصف حالتها العلمية عندما زارها سنة840هـ قائلا: « وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعبّاد والزّهاد، وسوق العلم حينئذ نَافِقَةٌ وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلي تحصيله مشرفة، وإلى الجدّ والاجتهاد فيه مرتقية ».

عوامل إزدهار الحركة الفكرية في العهد الزياني: وقدساهمت عوامل كثيرة في ازدهار الحركة الفكرية في الدولة الزيانية، إذ شجع سلاطينها العلماء والمفكرين وجلبوا أكبرهم ثقافة وعلما وأشهرهم للتدريس، فأدى هذا إلى اتساع المنافسة عامة بين الزيانيين وعواصم دول المغرب الإسلامي كتونس وفاس وغرناطة. ومن العوامل التي ساهمت هذه النقلة العلمية نجد:

-**النزعة العلمية والثقافية التي كان يتميز بها سلاطين تلمسان:** فقد كانت لهم إرادة قوية وهمة عالية ورغبة شديدة لتطوير هذه الحركة الفكرية بصفة عامة، كما كانت لهم رعاية متميزة للإتمام بالفنون والآداب والعلوم الشرعية على وجه الخصوص.

مؤسسات التعليم: عرفت تلمسان انتشار مراكز علمية كبيرة كالمساجد والمدارس والزوايا فقصدها العلماء والفقهاء الذين ذاعت شهرتهم من كل صوب وحوب وبهذا ف« لم تزل تلمسان دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك ابن أنس رحمه الله».

كما اهتم سلاطين الزيانيين ببناء المساجد وتزينها فقد كانت « توجد بتلمسان مساجد عديدة وجميلة ...ولها أئمة وخطباء كما تحتوي أيضا خمس مدارس بديعة حسنة البناء ومزدانة بالبلاط الملون...شيد معظمها حكام تلمسان والبعض حكام فاس».

وكان السلطان يغمراسن أول من سنّ تشجيع الحركة العلمية وذلك بجلب رجال العلم بطرقة الترغيب إلى تلمسان من أجل التدريس والتأليف.

المدارس بتلمسان: اهتم سلاطين تلمسان بالمداس وجعلوا عليها أشهر العلماء وكان هدفهم كغيرهم من ملوك الدول الإسلامية من بناء هذه المدارس هو نشر الثقافة وتوجيه الرعية وخدمة مصلحة المذهب الماكي ، لهذا كان إشرافهم عليها مباشرة، وهو ما أدى إلى انتشار التعليم الديني كالقراءات القرآنية والتفسير والحديث والعلوم العقلية التي من أهما علوم الكلام وعلوم العقيدة ومن هذه المدارس نجد:

مدرسة أولاد الإمام: وهي أول مدرسة أنشأها السلطان أبو حمو موسى الأول في تاريخ بني زيان عرفت باسم أولاد الإمام ، وقد أنشأها السلطان تكريما للعالمين الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى ابني الغمام الفقيه أبي عبدالله محمد ابن الإمام، إذ وضعهما للتدريس فيها، كما أنشا إيوانيين خصصهم للتدريس وبنى جنب المدرسة دارين لسكن أولاد الإمام ومساكن للطلبة، وتقع هذه المدرسة في الجانب الغربي لمدينة تلمسان قرب باب كشوط.

المدرسة التاشفينية: تعد ثاني مدرسة أنشئت بالمغرب الأوسط بناها السلطان أبو تاشفين الأول لتغطي حاجات المدينة العلمية بعد اتساع شهرتها العلمية فتزايد عليها توافد الطلبة من صوب وحوب من داخل البلاد وخارجها، وتقع هذه المدرسة قرب الجامع الأعظم، وقد درس فيها أشهر علماء تلمسان أمثال ابو عبد الله أحمد المقري وإبراهيم المصمودي والشريف التلمساني وسعيد العقباني، وعمر المشدالي الذي أكرمه السلطان أبو تاشفين الثاني وأدام له الحفاوة والتقدير وولاه التدريس بهذه المدرسة.

المدرسة اليعقوبية: وقد شيّدها السلطان أبو حمو موسى الثاني وسمّاها اليعقوبية تخليدا لاسم والده أبي يعقوب ولم يبق منها الآن إلّا المسجد المشهور والمعروف بمسجد سيدي إبراهيم الذي دفن فيه العالم الجليل إبراهم المصمودي، فغلب اسم العالم على اسم السلطان واسم والده مع طول الزمان، وكانت تحتوي على غرفة كثيرة للطلبة وتدرس فيها العلوم والتريخ في أيام ارتقاء المسلمين، وقد درس في هذه المدرسة أشهر العلماء بالمغرب الإسلامي والأندلس أمثال ابن مرزوق الخطيب الجد حيث جاء في تاريخ ابن خلدون « ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولاه الخطابة به وسمعه يخطب على المنبر قد أحسن في ذكره والدعاء له»، كما درس فيها ابن مرزوق الحفيد والشيخ محمد السنوسي والعالم الفقيه أبو عبد الله الشريف «علامة تلمسان بل إمام المغرب قاطبة»، وهذا بشهادة ابن خلدون حيث يقول عنه« لما استرجع الملك أبو حمو الثاني المذكور أعلاه مملكته استدى

الشريف وتلقاه براحته وأصهر له بنته فزوجها له وبنى له مدرسته فقام يدرس حتى هلك سنة إحدى وسبعين وكان مولده على ما أخبرني عام عشرة» وغيرهم من العلماء الأجلاء.

مدرسة جامع العباد: وهي المدرسة التي أسسها الملك أبو الحسن المريني قرب مسجد الشيخ أبي بومدين بالعباد، وقد كتب على قطعة رخامية« أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان ....وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه، وبعد أن يذكر كل ما حبسه يختم ذلك بقوله...يرسم غطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج المقيمين والواردين عليها».

مدرسة سيدي الحلوي: وهي مدرسة بناها السلطان أبو عنان فارس المريني وقد كتب على قطعة رخامية«أمر بناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين» وكانت هذه المدرسة بجوار المسجد.

هذه إشارة مقتطفة للمراكز العلمية التي كانت موجودة في تلمسان خلال العهد الزياني والتي جعلت منها منارة علمية تضاهي عواصم العالم الإسلامي وتخرّج وتكوّن فيها مجموعة من العلماء والفقهاء الذين جابوا بقاع الأراضي الاسلامية وأناروها بعلمهم أين ما نزلوا وفي مايلي ذكر لبعض الأعلام على سبيل التمثيل لا الحصر.

عنوان المحاضرة الثالثة: الحياة الثقافية في العهد الزياني (علماء وفقهاء تلمسان في العصر الزياني):

شهدت تلمسان نهضة فكرية كبيرة قام بها مجموعة من العلماء إما ولدوا بها درسوا بها ونبغوا في علوم كثيرة وإما قصدوها كطالبي علم ثم استقر بهم المقام وانتسبوا لها بحكم مدة المكوث، نحاول في الدراسة الاشارة إلى بعض منهم على سبيل التمثيل لا الحصر ومن يعود إلى المصادر التاريخية سيجد ضالته للتعرف عليهم ككتاب "البستان" لابن مريم " المعيار المعرب في فتاوى علماء إفرقية والأندلس والمغرب" للونشريسي

المقري محمد أبو عبد الله بن محمد بن أحمد التلمساني: القاضي والفقيه وقاضي الجماعة أخذ العلم عن كبراء العلماء من تلمسان وتونس وفاس، وقد عاش متنقلا بين المرق وتلمسان والأندلس، استقر بفاس فولاه السلطان المريني أبو عنان القضاء والتدرس حتى توفي عام 758هـ-1357م فحما إلى مسقط رأسه تلمسان ودفن بها من مؤلفاته " القواعد في الفقه" " الطرف والتحف في الوعظ والرقائق" " الحقائق والرقائق" " رحلة المتبتل" "اختصار المحصل" " شرح جمل الخونجي" " الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من معاني السنن وآي القرآن" "المسائل التفسيرية".

أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن مرزوق: ولد بتلمسان عام 1231م وأخذ العلم عن علمائها مثل أبوزكريا يحي بن محمد بن عصفور العبدري، وأبو إسحاق التنسي وأبو عبد الله المالقي وأبو عبد الله محمد بن اللحام ، كان عالما محدثا وفقيها متصوفا زاهدا عابدا، وهو من العلماء الذين قربهم السلطان يغمراسن توفي سنة 681هـ-1281، ودفن بجواره حسب وصية السلطان قرب الجامع الأعظم.

ابن مرزوق الحفيد أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد :كان ممن أشتهر بالعلم والرئاسة والفضل في بيوتات الجزائر وأعيانها في هذا العصر بيت بن مرزوق الذائع الصيت ، لقد تألق في سماء بيت بن مرزوق بدور وأقمار كان كوكبها الدري ونجمها الثاقب، مترجمنا هذا العلامة شيخ الإمام ومفتي الأنام أبو عبدالله محمد ابن أحمد بن مرزوق الحفيد العجيسي ولد عام (766هـ-1364م) كما ذكر في كتابه "إظهار صدق المودة في شرح البردة" تتلمذ على يد أكبر شيوخ العالم الإسلامي مثل ابن عرفة وابن الملقن والبلقيني والحافظ العراقي والفيروز آبادي

صاحب القاموس المحيط وأخذ عنهم، كما تخرج على يده مجموعة من العلماء والفهاء مثل الزواوي القسنطيني والمشدالي وعبد الرحمن الثعالبي والمازوني صاحب كتاب النوازل والقلصادي صاحب كتابة الرحلة.و من مؤلفاته:

عقيدة التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد- مناقب إبراهيم المصمودي وهو ترجمة لشيخه-شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب- إظهار صدق المودة في شرح البردة- شرح التسهيل لان مالك- النور البدري في التعريف بالمقري- الاستعاب لما في البردة من المعاني والبيان والبديع والإعراب- المنزع النبيل في شرح مختصر خليل وتصحيح مسائله بالنقل والدليل- المتجر الربيح والمسعى الرجيح في شرح الجامع الصحيح- نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين، كما له العديد من الأراجيز منها أرجوزة في نظم جمل الخونجي- أرجوزة في اختصار ألفية بن مالك- أرجوزة في في نظم " تلخيص المفتاح للخطيب القزويبي" سماها " مواهب الفتاح في نظم تلخيص المفتاح" –أرجوزة في علم الفرائض اختصر فيها منتهى الأماني للتلمساني.....

أبو الحسن التنسي محمد بن عبد الله عبد الجليل : شقيق العالم إسحاق التنسي أصله من التنس تولى التدريس بلمسان بأمر من السلطان يغمراسن كان نابغة زمانه حتى لقب بالحافظ من تآليفه " تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف نظم الدرر والقعيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان"، وقد خرج من تلمسان أيام الحصار الطويل فاستقبله السلطان أبو يعقوب المريني ومكث عنده إلى أن توفي 706هـ-1307م ودفن بالعباد وقد حضر جنازته السلطان أبو يعقوب يوسف المريني.

الونشريسي أحمد بن يحي بن علي الونشرسي التلمساني: ولد بتلمسان وأخذ العلم عن علمائها ترك عدة مؤلفات منها" المعيار المعرب في فتاوى علماء إفرقية والأندلس والمغرب"

الشيخ السنوسي محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب ابن عبد الله : الحسني ولد عام 832هـ وتوفي عام 895هـ بتلمسان كان جامعا بين الشريعة والحقيقة متضلعا في العلوم الظاهرية والباطنية، وقد عاش الشيخ السنوسي في عصر تنافس فيه أستاذة العلم والمعرفة الذين أسهموا في رسم معالم مشهد ثقافي فكري اتسم بالثراء والتنوع الفكري وأصالة العطاء العلمي ومن ثم تأتى للشيخ السنوسي أن ينهل من معين العلم والمعارف التي كان يزخر بها محيطه .

وقد تتلمذ على يدي مجموعة من العلماء بدءا بوالده أبو يعقوب والشيخ نصر الزواوي وأبو الحسن على بن محمد التالوتي الأنصاري وهو أخوه لأمه وأبو زيد عبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التازي قال عنه الونشريسي«صاحبنا الفقيه العالم العلم صدر المدرسين وحجة المتكلمين وعمدة المحققين ونخبة أكابر المؤلفين، الولي الصالح الخاشع المتبرّك به سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي» ، وقد ترك هذا العالم الرباني مؤلفات كثيرة منها:

*عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع والمعروفة أيضا بالعقيدة الكبرى.

* عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد حيث شرح فيه عقيدته السالفة الذكر.

* أم البراهين المعروفة بالعقيدة الصغرى أو السنوسية، وهي رسالة صغيرة الحجم تضمنت مبادئ علم العقيدة.

*شرح العقيدة الصغرى، وقد شرح فيه الشيخ السنوسي العقيدة المعروفة بأم البراهين أو العقيدة الصغرى شرحا مختصرا

* العقيدة الوسطى: المسماة (عقيدة أهل التحقيق والتسديد).

* شرح أسماء الله الحسنى، شرح فيه أسماء الله تعالى الحسنى، وكيفية العمل بها، كما يتعرض لتفسير الاسم فيشرح معناه ويبين اشتقاقه وثمرة المعرفة به ثمّ يذكر حظ العبد منه.

* المنهج السديد في شرح كفاية المريد، شرح فيه لامية الجزائري وهي المنظومة المسماة (الجزائرية في العقائد الإيمانية) للشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري .

* شرح عقيدة أبي عبد الله بن عبد الرحمن الحوضي المسماة واسطة السلوك

* تفسير الفاتحة وفواتح البقرة.

*شرح صحيح البخاري – شرح الوغليسية المسماة بالجامع في الأحكام الفقهية.

أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي: «الشيخ الفقيه المحقق الواصل القطب الرباني شيخ مشايخ الاسلام في عصره، إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد من ناحية إشبيليا ومن حصين يقال له" منتوجب" فتح الله عليه بمواهب قلبية وأسرار ربانية استفاد بها بالتوجيه والعمل وارتقى إلى غاية ما يؤمل، كانت ولادته سنة (510هـ-1116م) أما وفاته فكانت في سنة أربع وتسعين وخمسمائة عن نحو خمس وثمانين سنة، وقد ارتحل إلى المشرق فأخذ عن أعلام العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء وتعرف في عرفة بالشيخ " سيدي عبد القادر الجديلاني" فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الأحاديث وألبسه خرقة الصوفية وأودعه كثيرا من أسراره وحله بملابس أنواره.

عاش الشيخ أبو مدين حياة حافلة علمية علما وفكرا واكتسب خلالها كثيرا من العلوم العقلية والنقلية إلا أن مؤلفاته قياسا بذلك النشاط وتلك الحيوية الحافلة« تبقى قليلة لأن الشيخ قد أمضى شطرا طويلا من حياته في مجال الدعوة والإرشاد كما تصدر إلى إعداد وتأهيل عددا من الطلبة والمريدين هذا ما عاق اتجاهه إلى التأليف ، ومع ذالك وعلى قلة تلك المؤلفات التي وصلت إلى أيدي الباحثين ، فإنها شكلت مجالا خصبا وميدانا ثريا للباحثين في التراث الصوفي، وحسب بعض الباحثين لا تتعدى ستة مؤلفات وأكثرها لا يزال مخوطا وهي : أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد، وهو من أهم مؤلفاته، مفتاح الغيب لإزالة الريب وستر العيب، تحفة الأريب ونزهة اللبيب، عقيدة أبي مدين، حكم أبي مدين، رسالة أبي مدين، وقد تكون هناك مؤلفات أخرى لا تزال مخطوطة هنا أو هناك.

هذه مجموعة من الأعلام الذين ولدوا في تلمسان أو ارتحلوا لها حاولنا أن نذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر لأن القائمة طويلة جدا تحتاج إلى مجلدات وفريق عمل جماعي يؤرخ لهذه الفترة الذهبية من تاريخ الجزائر، ولعل المصادر العربية القديمة حافلة بهذا الإرث الحضاري سيجد فيها الباحث ما يشفي غليله.

المحاضرة الرابعة:الحياة الفكرية والثقافية بحاضرة مازونة

عرفت مدينة مازونة تطورا كبيرا في الحركة الثقافية والعلمية طيلة الفترة العثمانية في الجزائر، وهذا بمساهمة العلماءوالفقهاء والقضاة الذين تركوا تراثا ثقافيا كبيرا ، مما جعل المؤرخون يصفونها(بأم الأحكام المكنونة وخاصت لما تربعت على عاصمة (بايليك الغرب) ، وقد ازدهت هذه الحركة الثقافية الفكرية والعلمية بعد نزوح علماءالاندلس إلى الجزائر فارين من بطش الكنيسة في بلادهم يرافقهم اعتقادهم بأن ما أصابهم من محن وأفول نجمهم سببه الابتعاد عن الدين، فأرادوا تدارك ما فاتهم بالعودة إلى الدين وعلومه.

ويقصد بالحركة العلمية والثقافية « العلم المنقول، أو الحركة الدينية – إن صح هذا التعبير- وذلك لأن مفهوم العلم – في ذلك العصر- قد كان إتقانا لفهم أيِ الذكر الحكيم وحفظا لمرويات الحديث الشريف، ومعرفة لأصول العقائد والفقهيات وتعمقا في فن الأصول، أما عن المنطق فقد جرى فيه خلاف بين العلماء لأنه يمت إلى الفلسفة التي حرم الخوض فيها بعض الفقهاء ».

وقد اهتمت مازونة على غرار نظيراتها من حواضر المغرب الاسلامي بالعلوم الدينية بمختلف فروعها، إذ كان الفقه الاسلامي أساس هذه العلوم ، كما زاد الاهتمام بحفظ القران الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في مسائل الأصول، كما اهتم علماؤها بتفسير القران والعلوم المتعلقة به وفي مقدمتها علم القراءات، كما برزت التأليف المتعددة حول مناقب أولياء الله الصالحين، وكتب التدريب على القضاء وأداب المسافر.

أما علوم الحديث فقد عرفت اهتماما كبيرا من طرف علماء مازونة فنبغ منهم عدد كبير في الفقه والفتوى على المذهب المالكي، الأمر الذي جعل منهم محط أنظار العلماء من مختلف الحواضر والمدن في بلاد المغرب الاسلامي، فهذا بن رحمون الفاسي يكاتب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن المهدي المازوني لطلب الأجازة منه على كثرة العلماء في مدينة فاس، مما يدل على شهرة مازونة وتفوق علمائها في الحديث والفقه. يتضح من هذا الشاهد أن« مدرسة مازونة "كانت" محط رحال طلبة المغرب الأقصى إلى غاية الحرب العالمية الثانية ،ى حيث حورب التعليم الديني التقليدي في المدن والبوادي، إلا أن مدرسة مازونة ولو تدهور وضعف فيها التعليم، فإنها امتازت بالتخصص في دراسة الفقه».

ومايؤكد أن الفقه المالكي هو المادة الأساسية بهذه المدرسة ماقاله أبوراس الناصري« ثم انصرفت من مازونة إلى أم عسكر ما معي من المال ولا غيره سوى الفقه وحده... قال: هذه عادة طلبة مازونة».

وظلت على هذه الحالة مقصد طلاب العلم من داخل البلاد وخارجها حتى أنهم كانوا أرادوا أن يفتخروا بطالب لغزارة علمه عظموه بقولهم « لقد درس بمازونة».

مدرسة مازونة

تضم مازونة معالم ثقافية وعلمية كالمساجد والزوايا ساهمت في بعث الحركة العلمية بها خلال العهد العثماني خاصة مدرستها الفقهية والتي أسست على يدي الشيخ العلامة محمد بن الشارف البولداوي وهذا ما أكده أبو القاسم سعد الله بقوله « وقد بنى أحد المهاجرين الأندلسيين مدرسة مازونة المشهورة التي تخرج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني وهو محمد بن الشارف البولداوي وظلت هذه المدرسة محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى معسكر ». وقد أسس هذه المدرسة من ماله الخاص ودرس بها حوالي 64سنة إلى أن وافته المنية سنة 1164هـ وقبره معروف موجود بها عليه قبة تسمى باسمه بن الشارف.، و كانت المدرسة تتكون من مسجد جامع للصلاة المفروضة، وبعض المرافق التابعة له كانت تستعمل لإيواء الطلبة، ومكتبة كبيرة فيها مختلف المصادر الفقهية والأدبية.

وكان تمويل المدرسة يعتمد على الأوقاف والصدقات، ومن بين هذه الأوقاف مقهى كان يقدم كل أربعاء للطلبة الشاي والفول السوداني، وكان شخص يجول يوم الجمعة على المنازل ويجمع المواد الغذائية والملابس مساعدة لهؤلاء الطلبة الغرباء(تدعى هذه الطريقة بالرتبة) وتواصلت الصدقات في أيام الشدة والقحط والجفاف وقدم الأهالي يد العون للمغتربين، فتكفلت كل عائلة بطالب.

طريقة التدريس بمدرسة مازونة:

ظلت مدرسة مازونة الفقهية تعتمد في التدريس على العلوم الدينية والنقلية كغيرها من المدارس التقليدية بالجزائر(واقتصر تكوين طلبتها) تدريس الفقه على المذهب المالكي بمختصر الشيخ خليل وهوالعمدة في الفقه الذي غطى

مختلف التصانيف فيالمشرق والمغرب ويلقبه الناس لشهرته بالكتاب وتسميه العوام سيدي خليل، والكتاب الأصلي في أربعة أجزاء: كتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وكتاب البيوع، وكتاب الإيجار.

ويذكر أبو القاسم سعد الله «أن الحلقة العلمية بالمدرسة تبدأ بأن يطلب الشيخ من أحد طلبته بقراءة نص من المصنف والذي يمثل موضوع الدرس، يدخل إذن الطالب مكان الدرس فيجد المدرس أو المدرسين وحولهم الطلاب في حلقٍ أو نصف دوائ، وكل مدرس يتناول مسألة أو كتابا معينا، فإذا كان الطالب قد كون فكرة واضحة عن مدرس بعينه قبل مجيئه، فإنه يقصده مباشرة ويجلس إلى حلقته ويتابع دراسته معه في المادة التي يريد أن يدرسها أو المواد».

وحين يختتم الطالب الدرس يمنحه أستاذه إجازة خاصة لتدريس علم معين، أو عدد من العلوم أو إجازة عامة لتدريس كافة العلوم.

وعلى العموم فإن طريقة التدريس بالمدرسة كانت مبسطة وسهلة تعتمد على المحاضرة والإلقاء في نفس الوقت سمح المشايخ للطلبة بالمناقشة والمناظرة وبالسؤال استعدوا للرد بالجواب المقنع، ومزجوا في دروسهم بين الجد والهزل ، قدموا النكتة التي تسحر الألباب.

واستمرت المدرسة في أداء مهامها كراع للعلم والدين حتى في ظل الوجود الاستعماري وقد تواصل التدريس بها حتى منتصف القرن العشرين لتنطفئ شمعتها بعد وفاة آخر مدرس للفقه وهو الشيخ ولد أبوراس سنة1958م. ، وهي اليوم تئن وتشكو تقاعس أبنائها وتنتظر الزمن الذي تبعث فيه من جديد وتعود إلى مجدها الذي فقدته.

المحاضرة الخامسة :أشهر علماء حاضرة مازونة

نظرا لشهرة مدرسة مازونة فقد مر عليها العديد من العلماء إما كطلبة نبغوا في العلوم الدينية، وإما كعلماء قصدوها للتدريس نذكر منهم الأسماء التالية للتمثيل لا على سبيل الحصر:

ـ أبوزكريا يحي بن أبي عمران المازوني (ت 1478) ولد ونشأ بمازونة ودرس بها على يدي والده، ثم انتقل إلى تلمسان وأخذ العلم عن ابن مرزوق الحفيد والقاسم العقباني، تولى القضاء بمازونة وكان من أكبر فقهاء عصره، من أشهر مؤلفاته" الدرر المكنونة في نوازل مازونة".

ـ أبو عبد الله الثابتي: كما يسميه صاحب البستان يحي بن إدريس المازوني كان يحفظ 27ألف حديث.

ـأبوعمران موسى بن عيسى المازوني والد صاحب كتاب الدرر، من أشهر كتبه تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك، وهو كتاب يقع في مجلد واحد تناول فيه أحكام القضاء والتوثيق على المذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

ـمحمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي الجزائريأبو عبد الله: ولد عام 1787م بالقرب من مدينة يلل واشتهر بالسنوسي إنما جاء باللقب الذي كان يحمله جده تبركا بالإمام محمد بن يوسف السنوسي عالم تلمسان وصالحها في عصره، من أشهر مؤلفاته كتابه " المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة المراصد.

ـ أبو الخيرات مصطفى بن عبدالله بن مؤمن الرماصي الراشدي: والرماصي نسبة إلى قرية الرماصة بمستغانم، من أشهر كتبه، الأجوبة الفقهية.

خاتمة

يمكن القول أن مدرسة مازونة كانت منارة علمية وفكرية أضات كل الغرب الجزائري، بل وحتى حواضلر المغرب الاسلامي لاكتسابها لنظام تعليمي متخصص في الفقه انفردت به عن ما سواها من المدارس العريقة والشاهقة كتلمسان وبجاية ومعسكر وقسنطينة، وذلك لاحتوائها على خيرة العلمء والمشائخ، فكانت مقصد ومحج طلاب العلم ما يقارب لمدة تزيد عن ثلاثة قرون.

محاضرات في تاريخ الجزائر الثقافي تخصص أدب جزائري السنة أولى ماستر الأستاذ خبراج سنوسي

عنوان المحاضرة السادسة: الرحلة في الأدب الجزائري القديم

يحتل أدب الرحلات مكانة هامة من مجموع أشكال التعبير لدى العرب ففيه يحقق كاتبه مبتغى أكبر فني وأرقى مصنفات استحقت أن تضمن لنفسها حيزا هاما ضمن الأجناس الأدبية والفنون والمعارف، وكما هو معلوم فإن الرحلة الأدبية توفر متعة لصاحبها من خلال المادة التي يعرضها والطريقة التي يدوّنها سواء كانت جادة كالحقائق الواقعية أم خيالية هزلية من خلال سرد الغرائب والأعاجيب.

لقد تطورت الرحلة في الأدب العربي « وصارت فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية واهتمامه بحياة الناس وأنماط عيشهم وبمضمونه الفكري والإجتماعي وأسلوبه الأدبي المتميز غالبا عمّا سواه، وظهر أعلام اشتهروا بها مثل بن خلدون صاحب كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ورحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير الذي كان حرصا على تدوين مذكراته ومشاهدات يوما بيوم متجنبا ذكر الغرائب والعجائب ..واعتمد الهدف في الرحلة منهجا، ومحمد العبدري صاحب الرحلة المغربية الذي وصف في رحلته دول شمال إفريقيا وصفا دقيقا وكذلك الرحالة الحسن بن محمد الوزان المعروف بسم "ليون الإفريقي" وغيرهم من الأسماء الذين سجلوا رحلاتهم ودونوا ملاحظاتهم ولم يكن تسجيلا تقريريا مباشرا، بل كانوا يصوغون رحلاتهم ومشاهداتهم صياغة أدبية جميلة .

وتعد الرحلة الجزائرية امتداد لرحلات المغرب العربي وخاصة الدينية والتي كانت وجهة أصحابها المشرق العربي لما يحمله من أماكن مقدسة كالكعبة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم وبيت المقدس، فقد عرفت الرحلة الجزائرية تكبيرا في هذا المجال ، بل لعل الجزائريين من الأوائل الذين خاضوا في هذا الفن وتنمكنوا منه ، فقد تأسس في الأدب الجزائري على يد **أبي بكر العربي(ت543)** عندما دون رحلته عام (485هـ- 1092) ثم تضيف المصادر والأبحاث أن التأسيس إلى ابن جبير(ت614) من خلال رحلته الموسومة بـ"تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" التي كانت عام (578)، وبين هذا وهذاك فأن الوارجلاني أبو يوسف إبراهيم قد قام برحلة حجازية جمع في مسارها وحيثياتها ضمن قصيدة مطولة تتضمن (571)بيتا.

وقد توالت الرحلات الجزائرية بعد رحلة الوارجلاني خاصة نحو المشرق العربي للقيام بفريضة الحج وطلب العلم ، فأقبل الرحالة الجزائريون على تدوين رحلاتهم فقد «سجل ظهور مؤلفات في الرحلة وهي في أغلبها

رحلات مشرقية لغرض طلب العلم أو القيام بالحج»، إذن فأغلب رحلات الجزائريين كانت باتجاه المشرق لزيارة الأماكن المقدسة أو لطلب العلم والاستزادة منه.

رحلة ابن مرزوق الخطيب(ت 780)

وهي رحلة العالم والفقيه ابن مرزوق التلمساني والتي أعدها النقاد من أقدم الرحلات الجزائرية التي دونها أصحابها تحت مسمى(المسند الصحيح في مآثر مولانا الحسن) دوّن فيها زيارته للحجاز انطلاقا من تلمسان مرورا ببعض الأمصار كتونس وطرابلس والقاهرة سواء في الذهاب أو الإياب رفقة والده حيث يقول «واقتضى نظر مولانا الوالد رحمه الله الانفراد وبعثني للوطن في قصة يطول ذكرها ولمعاذير أبداها ومعول منها على ما اقترح أبي عند دواعي له اتجاه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم »، وكان الهدف من رحلة ابن مرزوق هو القيام بفريضة الحج ، كما نجد في هذه الرحلة وصف دقيق لما شاهده من البنايات والاحتفالات وغرائب المجتمعات التي زارها.

رحلة ابن قنفذ القسنطيني (740هـ-1339م) (1407-810هـ)

وهي رحلة قام بها العلامة وعالم الفلك والرياضيات والطبيب والمؤرخ أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب وهي رحلة صوفية قام بها صاحبها إلى زيارة أضرحة الأولياء الصالحين والتبرك برجال العلم وأصحاب الكرامات في رحلة عنونها ب " أنس الفقير وعز الحقير" حيث زار العديد من الأضرحة ومشايخ الصوفية« وذكر أخبارهم ومجاهداتهم والإشارة إلى ما تمتاز به سيرة كل واحد منهم»، فعلى العموم هذه الرحلة ترجمة لسير بعض الشخصيات التي وصفت بالصلاح في المجتمع.

رحلة عبد الرحمن الثعالبي(786هـ-1385م) (872هـ-1468م)

وهي رحلة علمية سماها ب" غنيمة الواحد وبغية الطالب الماجد" سرد في العلامة تنقلاته إلى مراكز العلم مترجما للشيوخ والعلماء الذين تتلمذ على أيديهم فها هو يحدثنا عن أستاذه العلامة بن مرزوق التلمساني قائلا: «قد أجازني سيدي وشيخي أمام العلم الصدر الكبير المتحدث الثقة المحقق، بقية المحدثين سيد وقته وغمام عصره وورع زمانه وفاضل اقرانه واعجوبة زمانه وفاروق أوانه، ذو الأخلاق المرضية والاحوال الصالحة السنية والأعمال الفاضلة الزكية أبو عبد الله أبن سيدنا الفقيه الإمام أبو العباس أحمد بن مرزوق أبقى الله بركته ورفع العلماء درجته

وجعل الاولياء زمرته » ويواصل عدّ العلماء الذين تكوّن على أيديهم أمثال الشيخ الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عثمان المانلاتي والفقيه أبو الربيع سليمان بن الحسن، وأبو مهدي الغبريني الذي إلتقى به في تونس ، كما إلتقى العلامة الشيخ أبا عبد الله محمد البلالي في مصر وخوفا من أن يطيل في الحديث عن شيوخه قال:« وهذا القدر كاف وقد تركت ذكر كثيرا من العلماء ممن قرأت عليهم من مروياتي خشية الإطالة».

رحلة أحمد المقري التلمساني(986هـ-1578م) (1041هـ-1631م)

قام بها العلامة والفقيه والمؤرخ شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني حجة زمانه في علوم الدنيا وخاتمة أدباء المغرب لزيارة قبر جده محمد المقري في كتابه المسمى" **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**" ، وقد ضمنها جوانب من حياته الشخصية بتلمسان والمغرب كما دوّن البلدان التي زارها كمصر والشام والحجاز، فهي تعد موسوعة علمية وأدبية وفقهية للباحثين في هذا العصر، فقد احتوت الرحلة على عدة أخبار أدبية من مخاطبات وسجلات ومراسلات مع أعيان عصره من فحول الشعراء والأدباء والعلماء والفقهاء والقضاة والامراء بالمغرب العربي والأندلس ومصر والشام وبلاد الحجاز، كما ترجم فيه لكثير من أعلام وأعيان المغرب والأندلس حفلت بهم رحلته، يقول في رحلته: «إنه لما سبق القضاء وجرت الأقدار بارتحالي عن الوطن المحبوب والقرار بعد ما شممت عراره النّجدي ولا أشجان ولا أكدار في عشية لم يكن بعدها من عارا ونزحت عن بلد به الوالد وما ولد....بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره » .

رحلة بن عمار (1195هـ-1707م) 1205هـ-1780م)

وهي رحلة المؤرخ والمحدث والأديب والشاعر أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرحمن من أعلام الجزائر العثمانية وأدبائها عاش بمدينة الجزائر العاصمة في القرن الثاني عشر الهجري، وقد سمى بن عمار رحلته بـ "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة الى الحبيب" ويظهر من عنوانها أنها رحلة هدفها الشوق والحنين لزيارة الأماكن المقدسة كرؤية الكعبة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كان كثير الشوق إلى البقاع المقدسة وكثيرا ما نظم الشعر والموشحات في ذلك وحين حانت الفرصة للحج اغتنمها وبدا تأليفه بمقدمة تناول فيها ما جادت به قريحته قبل التوجه للحج حيث يقول« وبعد يقول العبد الفقير المضطر لرحمة رب المولى القدير مثقل الظهر بالأوزار الراجي عفوه سبحانه أحمد بن عمار ألحفه رضاه وأتحفه القرب من مرتضاه لما دعتني الأشواق النافقة الأسواق إلى مشاهدة

الآثار والأخذ من الراحة بالثأر وأن أهجر الأهل والوطن وأضرب في عراض البيد بعطن» كما ذكر في هذه المقدمة دواعي التأليف وتسميتها وبيان ضرورة الحج شرعا مع الاستشهاد بالقرآن والأحاديث والأشعار والتعبير عن شوقه إلى ساكن الحجاز وتأزمه الروحي و" غرض مقصود" تناول فيها ما يحدثه السفر إلى الإياب وحط الرحال وبمعنى آخر أن هذا هو أساس الرحلة ،كما استطرد في ذكر أشعار غيره من المشرق والمغرب وذكر عادة احتفال أهل الجزائر بالمولد النبوي خاصة ملوك بني زيان وملوك بني الأحمر، كما ترجم في هذه الرحلة لمجموعة من الأعلام مثل المقري والثغري وبن الخطيب والتنبكتي وبن خلدون الشعراء العباسيين مثل المتنبي وبشار بن برد وأبي نواس، ثم "خاتمة" خصصها للحديث عما " نشأ عن ذلك بعد السكون وانضم إليه" .

وخلاصة القول فإن هذه الرحلة مصدر مهم للشعر الجزائري الديني خاصة والشعر العربي عامة، فقد ترجم لكثير من الشعراء المغاربة والأندلسين، كما ذكر العديد من العلماء والفقهاء الذين أخذ عنهم العلم، ورغم مكانة ابن عمار الأدبية العلمية وفكره المستقل فقد كان إذا حكمنا من آراء معاصريه فيه مثالا للإستقامة والتواضع والأخلاق الكريمة وقد ترك تلاميذ في كل مكان حل به، كما أن هجرة ابن عمار والمقري والثعالبي والشاوي وابن حمادوش وأضرابهم قد أفرغت الجزائر من قواعدها العلمية .

رحلة أبي راس النّاصر المعسكري (1165هـ-1751م) (1228هـ-1823م)

وهي رحلة أبي رأس الناصري المعسكري العالم والمؤرخ والفقيه الموسوعي الذي « أكثر من التأليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد». فقد « ألف تقريبا في كل فرع من العلوم المعروفة في وقته فإن أغلب كتبه في التاريخ والأنساب والأخبار وقد ذكر هو نفسه في رحلته ثلاثة وستين كتابا بين صغير وكبير وقسمها إلى ثلاثة عشر قسما مبتدئا بالقرآن ومنتهيا بالشعر ونسب إليه بعضهم 137كتابا »، وأما رحلته فقد سماها ب "فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وهي رحلة علمية ركز فيها الحديث عن العلم والعلماء والمناظرات والمؤلفات والمشايخ والفقهاء والتعريف بأصحابها، حتى يظهر لقارئها على أنها سيرة ذاتية له يفتخر فيها بنفسه خاصة عند أهل البلدان التي زارها في المشرق ويتضح هذا من قوله «وصار الشيخ يعظمني على صغري..وقامت لي علماء المشرق على ساق...حتى صارت حضرتي في العلوم تدك الأفاق وتنسك دروس مصر والشام وتونس والعراق» ويقول في مقام آخر ليؤكد هذا الإعتزاز بالنفس والتفوق « فألقوا السلم واعترفوا لي بالفضل والنيل

وصرت عندهم ..لا يشق لي غبار»، وقد قسم أبوراس الناصري رحلته إلى: خمس أبواب حيث عنون الباب الأول ب" ابتداء أمري" وفي تحدث حياته الشخصية منذ مولده طفولته وشبابه، وتعلمه وتدربه، وزواجه وأهله، وأما الباب الثاني الذي وسمهب" في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي" عدّد شيوخه سواء في الجزائر وبلدان المغرب العربي الأخرى أو المشرق، بما في ذلك شيوخه في الحجاز، وعدّد مايقارب خمسين شيخا ومن العلماء الذين التقى بهم في مصر نجد العالم اللغوي مرتضى الزبيدي صاحب قاموس تاج العروس حيث يقول« لقيت بها العلماء الكبار أهل العلم والأدب والأخبار الإمام الأرضى ..شيخنا مرتضى ففاوضته في فنون فوجدته كما لي فيه من الظنون ورويت عنه الصحيحين ورسالة القشيري ومختصر العين ومختصر الكنز الراقي وأجازنب بالباقي»، وأما الباب الثالث فقد جاء بعنوان " في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء والأعلام، وماجرى لي معهم من المراجعة والكلام"؛ حيث ذكر في هذا الباب المدن والبلدان التي زاها انطلاقا من بلده الجزائر ثم تونس ومصر والحجاز وبلاد الشام وبيت المقدس، وتناول الباب الرابع الذي عنونه ب"في الأسئلة وما يتعلق بها" وذكر فيه تعداد المسائل التي طرحت عليه وناقشها وأجاب عنها، كما أشار إلى بعض المناظرات التي دارت بينه وبين العلماء والمشايخ في البلدان التي زارها. والباب الخامس والأخير سماه ب" **العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز**" فقد تحديث عن تآليفه من الكتب والشروحات.

ويمكن القول أن رحلة أبي راس الناصري رحلة علمية احتوت على كثيرمن المسائل الفقهية واللغوية والفلسفية كما ترجم فيها لكثير من العلماء والفقهاء الذين التقى، إضافة إلى ذلك فإن هذه الرحلة تؤرخ لبعض المحطات من المجتع العربي عامة والجزائري خاصة خلال العهد العثماني، مما جعل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعدالله يضع أبي راس الناصري على « رأس المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية».

المحاضرة السابعة: الرحلة في الأدب الجزائري القديم (2)

- رحلة الحسين بن محمد سعيد الورتيلاني (1125هـ-1713م) (1194هـ-1780م)

وهي من أهم رحلات المغاربة اتجاه الحجازسماها صاحبها " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وهي تعد وثيقة « ألتزم (صاحبها) بالصدق بكل صراحة في كل ما أورده من أحداث ووقائع فهو يدلي برأيه بكل صراحة ويجاهر بالحق إن رأى في ذلك مصلحة»، فهي تكاد ترجمة لثقافة المجتمع الجزائري «فهي تسجيل حي للوضع الاجتماعي والإقتصادي ووصف دقيق للمسالك والعمران ومحطات القوافل ونقاط الماء وصورة صادقة للواقع الثقافي ، ولعل أهم ما يتميز به الورتلاني في هذا الجانب هو ترجمته للعديد من صلحاء وعلماء ومشايخ وطنه».

يقول الورتلاني في رحلته: « لما تعلق قلبي تلك الرسوم والأثار والرباع والقفار والديار... العلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين الأخيار والأياخ العارفين والإخوان والمحبين والمحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار من المشرق الى المغرب سيما أهل الصحو والمحو، إذ ليس لهم مع عز الله قرار أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار».

رحلة عبد الرزاق بن حمادوش(1107هـ-1695م)

ولد بالعاصمة وقد عاش حوالي تسعين عاما ، وهي رحلة قام بها باتجاه المغرب وجمع فيها بين طلب العلم والتجارة ، انطلق من العاصمة الجزائرية إلى مدينة تيطوان كما زار مكناس وفاس ، ثم عاد إلى الجزائر، وقد سمى رحلته ب" لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، وكان قصد ابن حمادوش في رحلته إلى الغرب كون أن « الجو العلمي في المغرب أفضل منه في الجزائر رغم تقبل الأحوال السياسية فيه، فقرب المغرب من الأندلس وكثرة مراكز التعليم والعواصم العلمية ووفرة المكتبات ووجود القرويين وتقدير المغرب لأهل العلم ، كان ذلك لعب دورا مهما في جلب علماء الجزائر إلى هناك» ويمكن القول أن رحلة بن حمادوش تشهد عليه« أنه كان رحالة كثير الاهتمام بطبائع الناس وغرائب الأشياء ودقيق الملاحظة» كما كان « يسجل ملاحظاته العلمية ويؤلف الرسائل

ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين»وذلك لأنه كان « يشتغل بالعلوم كالطب والفلك والحساب وغيرها بجانب خط علماء عصره»، وهذا بشهادته هوإذ يقول« فاليوم و الحمد لله أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض» ، والملاحظ أن بن حمادوش في رحلته لم يقتصر على جانب واحد بل تعداه إلى ميادين كثيرة فقد «وصف الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والإقتصادية في المغرب الذي زاره مرتين على الأقل وسجل ملاحظاته وأحكامه في مذكراته التي تعرف أيضا بالرحلة لسان المقال »، كما تحسب هذه الرحلة على أنها «مصدرا هاما لحياة المؤلف(ابن حمادوش)، بل تكاد تكون المصدر الوحيد المعروف عنه حتى الآن ».

رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي :

وهي رحلة استكشافية ذات توجه استشراقي قام صاحبها بكتابتها بأمر من القنصل الأمريكي(ويليام هودسون) وذلك لبسط النفوذ على الصحراء الجزائرية، وكتبها صاحبها بالعربية لكن القنصل قام بترجمتها إلى الانجليزية ونشرت في مجلة أمريكا الشمالية عام 1832م حيث يقول القنصل « لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال إفريقيا قام بها الحاج بن الدين الأغواطي، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني وقد دفعت له الثمن»، و يواصل حديثه عن أهمية هذه الرحلة قائلا« إنني أعتقد أن هذه الرحلة تحتوي على معلومات تهم جغرافية إقيمية بحيث قد تكون مفيدة للرحالة في المستقبل ، إن معظم الشعوب التي تتحدث عنها ابن الدين غير معروفة جيدة، بل إن بعضها لم يشر إليها أي رحالة أو جغرافي أوروبي من قبل حتى ليون الإفريقي نفسه لم يذكرها » يظهر جليا من خلال هذا المقطع أن الغرض من هذه الرحلة هو استكشاف هذه المناطق وبسط النفوذ على الصحراء، والتعرف على خيراتها وعلى عادات وتقاليد سكانها، خاصة الجانب اللغوي حيث يقول القنصل « إن هدفي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكد على امتداد رقعة اللغة البربرية، وقد أظهر المخطوط لحسن الحظ ان هذه اللغة هي لسان السكان في كل مكان من شمال إفريقية»

ورحلة ابن الدين كما اعتبرها أبو القاسم سعد الله فإنها« كنص تاريخي هامة جدا فهي تحتوي على معلومات طيبة إجتماعية وإقتصادية وجغرافية وسلالية ولغوية ...عن المناطق التي تحدث عنها وقد ذكر هودسون أن هذه الرحلتة تحتوي على معلومات لم يسبق للأوروبيين أن عرفوها حتو أولئك الذين رحلوا وكتبوا عن إفريقية»، ولأهمية هذا النص على الأقل من وجهة النظر الأوربية سارع الفرنسيون من ترجمته وتداولوه، وقد كان الفرنسيون أكثر

إهتماما بإفريقيا من الأمريكيين، فقد ترجم السيد دافيزاك d avezac هذه الرحلة إلى الفرنسية من الأنجليزية وقرأ الترجمة في جوان 1833م على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس ثم نشرها نتعليق هامة وتذليلات كما نشرتها بالفرنسية قبل دافيزاك مجلة أخبار الرحلات الجديدة، والغالب أن يكون نص الرحلة مكتوبا بالإنجليزية في نهاية عهد هودسون بالجزائر حوالي سنة1829م.

ويجدر الذكر أن هذه الرحلة قد ضمت معلومات مهة عن مدن مختلفة من الصحراء الجزائرية مثل الأغواط تاجموت عين ماضي وغرداية ومتليلي وواد ميزاب المنيعة قرارة وتقرت وورقلة أولف تيميمون والطوراق وعن تقاليد وعادات سكان هذه المناطق وعن تجارتهم وعلاقتهم بالدول المجاورة كدول الساحل الإفريقي مثل شنقيط تبكتو والمغرب الأقصى مثل فاس وطرابلس مثل غدامس قابس وتونس مثل جزيرة جربة والسودان، كما تحدث عن لهجات هذه القبائل التي زارها .

كما يمكمن أن نصنف هذه الرحلة ضمن الدراسات الاستشرقية التي قام بها أصحابها تمهيدا للغزو العسكري وبسط النفوذ على الصحراء، واكتشاف خيراتها والتعرف على عادات وتقاليد سكانها ، كما تظهر هنا الصورة الحقيقية لهذا المستشرق الذي تحالف وتكاتف مع بعضه البعض في احتلال دول الشرق، حيث يظهر التعاون الأمريكي الفرنسي لبسط نفوذه ضمن إتفاقية تقسيم ممتلاكات الدولة العثمانية

رحلة أبو العباس أحمد بن هطال التلمساني (ت1219هـ) .

قام بهذه الرحلة الحاكم العثماني الباي محمد الكبير، وأما كاتبها فهو أبو العباس أحمد بن هطال التلمساني، وهدف من هذه الرحلة هو بسط النفوذ على الجنوب اصحراوي للجزائر وذلك بتحصيل الضرائب والإيتاوات التي كانت تفرضها السلطات العثمانية على الأهالي، كما أن هذه المنطقة أغلب سكانها من البدو الرحل الذين لم تتحكم فيهم هذه السلطة بسبب ترحالهم المستمرمن جهة وبسبب تمردهم ومقاومتهم من جهة أخرى، ويظهر هذا من من خلال قول صاحب الرحلة وهو يتحدث واصفا عقلية وشخصية هؤلاء القوم«كأنها أمم بقيت من أهلها أو حرة نشزت من بعلها ، فشمر لها عن ساعد الجد، عازما على رد ما بها من النفار والصد »، وقد جهز الباي محمد الكبير جيشا عظيما وانطلق به من معسكر مرورا بجبال العمور وآفلو والأغواط التي دخلها بقوة وتكمن أهمية هذه الرحلة كونها « تتضمن أخبار جغرافية وإجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا

يستغنى عنها»، والأمر الذي يتبث أن هذه الرحلة كانت رحلة عسرية هو ما جاء على لسان كاتبها« جمع بموكبه وقواده ونشر أعلامه ولم يزد على أن كان جيشه حشمه وخدامه، وخرج يوم الخميس من ربيع الأول بقومه وعسكره»، ويواصل الحديث في رحلته عن الرعب الذي تركه الباي جراء هذه الحملة لهذه المناطق«فلما رآه أهل تلك القرية علموا أنهم لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته فخرجوا منها أجمعهم ولم يأخذوا شيئا من أمتعتهم وقوتهم وتركوها خاوية على عروشها أسيرة في يد ممقوتها فدخلها من غير حصار عليها ولا قتال» ويواصل في ذكر البطش والأذى الذي فعله لسكان هذه المناطق قائلا«فأهلهما من الرجال والنساء لما سمعوا بقدومه قبل وروده عليهم، هربوا بأنفسهم وذرياتهم وتفرقوا في رؤوس الجبال » .

عنوان المحاضرة الثامنة: الشعر الشعبي الجزائري كظاهرة ثقافية

من الظواهر الثقافية التي يجب أن يتوقف عندها الباحث في تاريخ الجزائر الثقافي ظاهرة الشعر الشعبي التي لها وجود لافت النظر في مختلف ربوع الوطن وعلى مر السنين، كما أن هذا الشعر سجل ودوّن محطات مهمة من تاريخ الجزائر كقصيدة مزغران للشاعر لخضر بن خلوف التي أرّخ فيها لهذه المعركة التي دارت بين الجزائريين والاستعمار الاسباني وهي «معركة مستغانم دارت بين المسلمين والإسبان سنة(965هـ-1558م) المعروفة بمعركة مزغران ، اشتهر فيها الشاعر الشعبي الأكحل بن خلوف المعروف بالأخضر شخصيا وقد سجل فيها قصة المعركة في قصيدته، فذكر قصة حسن باشا قائد الجيش الإسلامي وأعماله خلال المعركة والأهالي الذين ساهموا في الجهاد والطريق التي مر بها الجيش الإسباني بقيادة" الكونت دالكوديت" وتحدث عن معنويات الجيش الإسلامي والجيش الإسباني، فهناك الإقدام والحزم وهناك الذعر والخوف والجبن، وأشار إلى موت القائد الإسباني في المعركة».

وانطلاقا من هذه المكانة وهذا الحضور الذي سجله الشعر الشعبي الجزائري والذي لا يقل أهمية عن الشعر الفصيح سنحاول الوقوف عند جذور ونشأة هذا الشعر وعن أهم مصطلحاته.

إن الدارس للشعر الشعبي الجزائري يجد مصطلحات متنوعة مثل الشعر الشعبي والملحون والشعر العامي والشفاهي والطبيعي وشعر القول وغيرها وكل واحد يدافع عن المصطلح أو التسمية التي آثرها ، نحاول أن نستعرض هذه المصطلحات ومناقشتها، ونبدأ بمصطلح " الملحون" لكثرة تداوله عند الباحثين ومن الذين ناقشوه" محمد المرزوقي" حيث قال : «إن الشعر الملحون الذي نريد أن نتحدث عنه اليوم فهو أعم وأشمل من الشعر الشعبي إذ يشمل كل شعرمنظوم بالعامية سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله وسواء روي من الكتب أو مشافهة وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملك للشعب أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي ، فهو من "لحن يلحن في كلامه" أي نطق بلغة عامية غير معربة ، أما وصفه بالعامي، فقد ينصرف معنى هذه الكلمة إلى عامية لغته وقد ينصرف إلى نسبته للعامة ، فكان وصفه بالملحون مبعدا له لهذه الاحتمالات». فمحمد المرزوقي يرى أن الشعر الملحون هو كل شعر كتب بلغة عامية أو روي بها وسواء عرف صاحبه أم جهل وإن الميزة التي يميزه هو انتشاره لدى عامة الشعب.

نجده نفس المطلح "الملحون " يتخذه الباحث الجزائري عبد الله ركيبي بقوله « لما كان " الشعر الملحون" —في معظمه – تقليدا للقصيدة المعربة فإن الفرق بينه وبينها هو في الإعراب ، فهو إذن من" لحن" " يلحن" في الكلام إذا لم يراع الإعراب والقواعد اللغوية المعروفة »

فعبدالله ركيبي ركز في اختياره لاسم الملحون الذي هو من اللحن أي المخالفة في القواعد الصحيحة للإعراب، ويبعد عنه اسم العامي كون أن « تسمية هذا الشعر " بالعامي" قد توحي بأن قائله أمي" لا معرفة له باللغة ، قراءة أو كتابة ، وقد توحي أيضا بأن المتلقي له من الأميين وبأن هذا الشعر لا صلة له بالفصحى من قريب أو بعيد » .

ومن رأي الباحث إبعاد مصطلح العامي حتى لا يذهب ذهن القارئ أو الدارس أن ناظم الشعر ومستمعه من الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة.

أما الباحث المغرب عباس الجراري فهو يفضل اطلاق اسم الزجل حيث يقول « فإننا نفضل إطلاق الزجل على كل أواع الشعر الشعبي المغربي وندعو إلى هذه التسمية بدلا من أي تسمية اخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار..».

فالباحث عباس الجراري يفضل إطلاق مصطلح : الزجل" عن المصطلحات الأخرى وذلك لتوحيد المصطلح سواء في المغرب أو في الوطن العربي ونظر إلى هذا النوع من الشعر كظاهرة قومية موحدة وتميمنا بالزجل الذي ينتشر في كل الأقطار العربية .

ويذهب الباحث صالح المهدي إلى اتخاذ تسمية الزجل والتي يراها أنها جزء من الشعر الشعبي حيث يقول« الزجل ما هو إلا جزء من الشعر الشعبي الذي كان موجودا ولا يزال متداولا بين الأجيال في مختلف الأقطار العربية وفيه من طريف التراكيب ورائع المواضيع ما يجعل البحث المتعلق بالزجل ناقصا إذا لم يتناول دور الشعر العربي الشعبي في جميع الأقطار العربية»، ويعرف الشعر الشعبي بأنه «هو الشعر العربي الذي تعلّبت عليه اللهجات المحليّة التي لم تطبّق فيها قواعد الإعراب الخاصة باللغة العربية الفصحى، ولذا اشتهر في الكثير من الأقطار العربية باسم (الشعر الملحون) »

فالباحث صالح المهدي يرى أن الشعر الشعبي هو الشعر الذي لا تحترم في القواعد النحوية والصرفية، كما أن الزجل جزء منه.

ونجد الباحث أمين القاري يرجع اسم الزجل عندما يتحدث عن دور الشعر في حياتنا « الشعر هو النغمة السحرية التي تتصاعد من القلوب والنفوس وتعبر عنها الشفاه ، وأحسن ما يكون التعبير الشعري بلغة الحياة التي هي مرآة صادقةللحياة في جميع دقائقها ومنعرجاتها ، ولغة الحياة في البلاد العربية اليوم هي اللغة العامية التي اعتمدها الزجل فكان والحق يقال من أصدق الشعر وألصقه بالعواطف الإنسانية الخالدة».

أما الباحثة نور سلمان فتطلق على هذا النوع من الشعر اسم الشعر الشعبي وتضعه مقابلا للشعر الفصيح«كان الشعر في الأدب الشعبي لسان حال العامة ، كما اعتبر ديوان الأحداث معبّرا عن تمسك الشعب بأرضه وكيانه... وكثيرا ما كان يسبق الشعر الشعبي الفصيح» فالباحثة تِؤيد اسم الشعر الشعبي عن الأسماء الأخرى.

ويوافقها الباحث التلي ابن الشيخ في هذا الاسم فهو يرى أن الشعر الشعبي هو وليد الفتوحات الهلالية ويفند ارتباطه بالأصل الأمازيغي إذ يقول «ومن المستبعد أن لا يعرف السكان الأصليون نظم الشعر وروايته إلا بعد هجرة بني هلال إلى الأقطار، وما يدعم هذا الافتراض أننا نجد أنماطا من القصص الشعبي والرقصات الشعبية، وبعض العادات والتقاليد سابقة للفتح الاسلامي بينما لم نعثر على نصوص من الشعر الشعبي سابقة لهجرة القبائل الهلالية » فالباحث يطلق اسم الشعر الشعبي ويربط ظهوره في الجزائر مع فتح بني هلال لبلدان المغرب العربي.

ونفس الرأي نجده عند الباحث أحمد قنشوبة بقوله «يبقى الأدب الهلالي أول مظاهر الأدب الشعبي الذي ظهر في الجزائر إذ لا توجد أدلة تدل على وجود مثل هذا النوع من الأدب قبل الهلاليين» . فالباحث يربط ظهر الأدب الشعبي عموما والشعر الشعبي خصوصا بالهجرة الهلالية للجزائرخاصة وللمغرب العربي عامة ، ومن هنا فالقصيدة الشعبية « ظهرت مع الزحفة الهلالية أو هي ثمرة للحملة الهلالية على الجزائر التي أدت خدمة جليلة للعربية ولسكان شمال إفريقيا الذين عربتهم بسهولة ومكنتهم من الثقافة العربية». كما أن هناك من الباحثين من يطلق الشعر الشعبي مرادفا للملحون «الهدف من الحديث قليلا عن الشعر الشعبي أو الملحون تحديد علاقته

بالثقافة وتحديد علاقة الثقافة به » . فالباحث يطلقهما على أساس مترادف ويربط هذا الشعر بالثقافة المحلية للجزائر .

وهناك من يطلق عليه الشعر العامي حيث يقول مارون عبود: « إن الشعور بالحياة وإدراكها الكامل لا يكونان تاميين إلا إذا عبّرت عنهما بغير اللغة الدائرة على الألسنة ، وبهذا يثير شاعرنا العامي النفوس إثارة يعجز عنها أكبر شعرائنا الرسميين» فالباحث يفضل الشعر العامي على الشعر الرسمي لأنه يحبر عن حياة الناس بكل صدق وعفوية.

كما يطلق في بعض الأقطار العربية خاصة العراق اسم "القوما " وقد اخترعه «البغداديون في دولة العباسيين برسم السحور في شهر رمضان، واشتقاق اسمه من قول المغني للسحر: "قوما للسحور" ينبهون به رب المنزل ، ولما شاع وكثر فيه التصنيف نظموا فيه الغزل والزهد وسائر الألوان كما قبله من الفنون » ، وإن في بداية نشأته مرتبطا بالجانب الديني ولكنه مع تطور الحياة صار ينظم في جميع الأغراض الأخرى.

وعلى العموم فالشعر الشعبي لا يقتصر على هذه الأسماء التي ذكرناها بل يتعداها إلى أسماء أخرى عددها الباحث أمين القري قائلا« وعندي أن في " الموالي" و"الزجل" و" العتاب" و "المعنى" من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ، مالو وصفناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ...لباتت كباقة من الرياحيين بقرب رابية من الحطب أو كسراب من الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة » فهذه الأنواع من الشعر تعد أفضل من الشعر المنظوم بلغة فصيحة لأنها صورة نابضة لحياة الناس.

وقد عرفت الجزائر مجموعة من الشعراء عنوا عناية خاصة بالشعر الشعبي منذ القديم حيث نجد ابن مسايب صاحب قصيدة يا الورشان وسعيد المندسي الذي اشتهر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب قصيدة العقيقة الأخضر بن خلوف وأحمد بن تريكي المدعو الزنقلي ومصطفى ابن براهيم ومحمد ابن قيطون ومحمد بلخير وبومدين ابن سهلة وأحمد بن مصطفى العليوي وعبد الله بن كرّيو وغيرهم من الشعراء، وفي مايلي تمثيل لبعض الشعراء الشعبيين الجزائريين الذين أسسوا القصيدة الشعبية:

يقول **عبد الله بن كرّيو**:

قمر الليل خواطري تتونس بيه نلقى فيه أوصاف يرضاهم بالي

يا طالب عندي حبيبة ليه شبيه من مرغوبي فيه سهري يحلالي

ويقول كذلك الشاعر **أحمد بن تريكي** في قصيدة يا الوشام

يا الوشّام دخيل عليك كن حاذر فاهم نوصيك

ونجد **مصطفى بن براهيم** يقول في إحدى قصائده مفتخرا بأصله

أنا من سربة الأبطال ابني عامر ذوك وردي

نصطاد الوحش والغزال ناكل من جابها زْنادي

ويقول **سعيد المنداسي**

سولت الحي عندما شدّوا الأضغان وقيفوا مقدار نفس ماساروا

وهذا **لخضر بن خلوف** يقول في قصيدته معركة مزغران

ياسايلني عن طراد الروم قصة مزغران معلومة

يا سايلني كيف ذا القصة بين النصراني وخير الدين

يا فارس من ثم جيت اليوم غزوة مزغران معلومة.

هذه بعض الاشارات لبعض الشعراء الشعبيين الذين خلدوا تاريخ الجزائر في محطات مهمة كانوا بمثابة مؤرخين لفترات حرجة شحت فيها المصادر بسبب الظروف التي مرت بها الجزائر.